وكلما زاد الناس في الإلحاد زاد الله تعالى في المدد ، ففي أيّ بلد يُفترى فيها على الإيمان ويُظلم المؤمنون ، ويكثر الطغاة ؛ تجد فيها بعض الناس منقطعين إلى الله تعالى ، لتفهُم حقيقة القيم ، وحين تضيق الدنيا بالظلمة والطغاة تجدهم يذهبون إلى هؤلاء المنقطعين لله ، ويسألونهم أن يدعوا لهم .

وقد ألزم الحق - سبحانه وتعالى - هنا نفسه بأن يُنجى المؤمنين في قوله سبحانه : ﴿ .. كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣) ﴾ .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) ﴾

والشكُّ [١] معناه : وضْعُ أمرين في كِفَّتين متساويتين .

وهنا يأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ بأن يعرض على الكافرين قضية الدين ، وأن يضعوها في كفة ، ويضعوا في الكفة المقابلة ما يؤمنون به .

ويترك لهم الحكم في هذا الأمر .

هم - إذن - في شك : هل هذا الدين صحيح أم فاسد ؟

وعَرْض الرسول ﷺ لأمر الدين للحكم عليه ، يعنى : أن أمر الدين ملحوظ أيضاً عند أيّ كافر ، وهو ينتبه أحياناً إلى قيمة الدين .

---

(١) الشك : نقيض اليقين ، وجمعه : شكوك . قال تعالى : ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ .. (١٠) ﴾ [إبراهيم] . [لسان العرب : مادة (ش ك ك)] .

فإن كنتم فى شكٍّ من الدين الذى أنزلَ على رسول الله ﷺ ، وهل ينتصر الرسول ﷺ ومَنْ معه عليهم ، أم تكون لهم الغلبة ؟

وحين يعرض الرسول ﷺ أمر الدين عليهم ، ويترك لهم الحكم ، فهذه ثقة منه ﷺ بأن قضايا دينه إنْ نظر إليها الإنسان ليحكم فيها ، فلا بد أن يلتجيء الإنسان إلى الإيمان .

ويحسم الحق سبحانه وتعالى أمر قضية الشرك به ، ويستمر أمره إلى الرسول ﷺ أن يقول :

﴿ فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ .. (١٠٤) ﴾ [يونس]

أى : أنه ﷺ لا يمكن أن يعبد الشركاء وأن يعبد الله ؛ لأنه لن يعبد إلا الله ﴿ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ (١٠٤) ﴾ .

ثم جاء سبحانه بالدليل الذى لا مراء[1] فيه ، الدليل القوى ، وهو أن الحق سبحانه وتعالى وحده هو المستحق للعبادة ؛ لأنه ﴿ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ ﴾[2] ، و لا يوجد مَنْ يقدر أو يتأبى على قَدَر الله سبحانه حين يُميته .

وهنا قضيتان :

الأولى : قضية العبادة فى قوله سبحانه : ﴿ فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ .. (١٠٤) ﴾ [يونس]

---

(١) المراء، والمماراة ، والتمارى، والامتراء : الجدال والشك . قال تعالى : ﴿ ..فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا (٢٢) ﴾ [الكهف] . وقال تعالى : ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) ﴾ [النجم] . وكذلك المرية (بكسر الميم، وبضمها)، قال تعالى : ﴿ وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ .. (٥٥) ﴾ [الحج] [لسان العرب : مادة (م ر ى)] بتصرف .

(٢) يتوفاكم : يميتكم ويقبض أرواحكم . وهو من توفية العدد ، أى : يقبض أرواحكم أجمعين ، فلا ينقص واحد منكم . ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ..(٤٢) ﴾ [الزمر] أى : يستوفى مُدد آجالهم فى الدنيا . [اللسان : مادة وفى] .

وكان لا بُدَّ أن يأتي أمر المسألتين معاً : مسألة عدم عبادة الرسول لمن هم من دون الله ، ومسألة تخصيص الله تعالى وحده بالعبادة.

والفصل واضح بما يُحدِّد قطع العلاقات بين معسكر الإيمان ومعسكر الشرك ، كما أورده الحق سبحانه في قوله :

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون]

والذين يقولون : إن في سورة (الكافرون)[1] تكراراً لا يلتفتون إلى أن هذا الأمر تأكيد لقطع العلاقات ؛ ليستمر هذا القطع في كل الزمن ، فهو ليس قطعاً مؤقَّتاً للعلاقات[2].

وهذا أول قَطْع للعلاقات في الإسلام ، بصورة حاسمة ليست فيها أية فرصة للتفاهم أو للمساومة ، ويظل كل معسكر على حاله.

---

(١) نزلت سورة الكافرون في رهط من قريش قالوا : يا محمد ، هلم اتبع ديننا ونتبع دينك ، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما في يدك قد شركت في أمرنا وأخذت بحظك ، فقال : معاذ الله أن أشرك به غيره. فأنزل الله تعالى : ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١﴾ إلى آخر السورة ، فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش ، فقرأها عليهم حتى فرغ من السورة ، فأيسوا منه عند ذلك. [أسباب النزول - للواحدي ص ٢٦١].

(٢) أقوال مُفسِّري وعلماء سلفنا الصالح تتلاقى كلها فيما قاله فضيلة الشيخ هنا. فقال البعض منهم البخاري وغيره أن المراد بـ ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ [الكافرون] في الماضي و﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥﴾ [الكافرون] في المستقبل. وقال البعض الآخر : إن هذا تأكيد محض. وهناك قول آخر نصره الإمام ابن تيميه ، وهو أن المراد بقوله : ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ [الكافرون] نفى الفعل لأنها جملة فعلية ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤﴾ [الكافرون] نفى قبوله لذلك بالكلية ؛ لأن النفي بالجملة الاسمية آكد ، فكأنه نفى الفعل وكونه قابلاً لذلك ، ومعناه نفى الوقوع ، ونفى الإمكان الشرعي أيضاً. انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٥٦١).

يقول الحق سبحانه وتعالى فى سورة النصر :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ ﴾ [النصر]

هنا يتأكد الأمر ، فبعد أن قطع الرسول ﷺ العلاقات مع معسكر الشرك ، جاء نصر الله سبحانه وتعالى وفَتْحه ، فَهُرِع الناس من معسكر الشرك إلى معسكر الإيمان [1] .

هم - إذن - الذين جاءوا إلى الإيمان . . هذه هى **القضية الأولى** :

﴿ فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ . . ﴿١٠٤﴾ ﴾ [يونس]

وهم كانوا يعبدون الأصنام المصنوعة من الحجارة .

وأنت إذا نظرتَ إلى الأجناس فى الوجود ، فأكرمها هو الإنسان الذى سخَّر له الحق سبحانه بقية الأجناس لتكون فى خدمته .

والجنس الأقل من الإنسان هو الحيوان .

ثم يأتى الجنس الأقل مرتبةً من الإنسان والحيوان ، وهو النبات .

ثم يأتى الجماد كأدنى الأجناس مرتبةً ، وهم قد اتخذوا من أدنى الأجناس آلهة ، وهذه هى قمة الخيبة .

وتأتى **القضية الثانية** فى قول الحق سبحانه وتعالى :

---

(١) كان بين سورتى «الكافرون» ، و«النصر» ما يزيد على ١٥ سنة ، فسورة الكافرون نزلت فى بداية الدعوة ومحاولة قريش إثناء رسول الله ﷺ عن الاستمرار فى دعوته ، ثم حدثت المفاصلة ، ثم الهجرة ، ثم الغزوات ، إلى أن تَمَّ نصر الله بفتح مكة ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ، فكانت سورة النصر . وهذا يؤكد ما قاله فضيلة الشيخ من امتداد القطع مع معسكر الشرك ؛ ليشمل الزمن كله بالنسبة لقضية الإيمان ماضياً وحاضراً ومستقبلاً .

﴿ . . وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) ﴾ فإذا كان رسول الله ﷺ قد رفض العبادة لمن هُمْ دون الله سبحانه ، فمعنى ذلك أنه لن يعبد سوى الله تعالى .

وليس هذا موقفاً سلبياً ، بل هو قمة الإيجاب ؛ لأن العبادة تقتضي استقبال منهج الله بأن يطيع أوامره ، ويجتنب نواهيه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا(١) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) ﴾

وما دام الخطاب مُوجَّهاً لرسول الله ﷺ ، فهو ككل خطاب مِنَ الحقِّ سبحانه لرسوله ﷺ ، إنما ينطوي على الأمر لكل مؤمن .

وإذا ما عبد المؤمن الله سبحانه فهو يستقبل أحكامه ؛ ولذلك يأتي الأمر هنا بألا يلتفت وجه الإنسان المؤمن إلى غير الله تعالى ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا . . (١٠٥) ﴾ [يونس]

فلا يلتفت في العبادة يميناً أو يساراً ، فما دام المؤمن يعبد الله ولا يعبد غيره ، فليعلم المؤمن أن هناك - أيضاً - شركاً خفياً(٢) ، كأن يعبد الإنسان مَنْ هم أقوى أو أغنى منه ، وغير ذلك من الأشخاص التي يُفتن بها الإنسان .

---

(١) حنيفاً : مائلاً عن كل طرق ومناهج الضلال ، إلى طريق الحق وحده .

(٢) الشرك الخفي : هو الرياء وطلب السمعة والصيت . فعن شداد بن أوس قال قال ﷺ : «إن أخوف ما أتخوَّف على أمتي الإشراك بالله . أما إني لست أقول : يعبدون شمساً ولا قمراً ولا وثناً . ولكن أعمالاً لغير الله ، وشهوة خفية» أخرجه ابن ماجه في سننه (٤٢٠٥) .

ونحن عرفنا من قبل قول الحق سبحانه :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا [1] مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ [2] إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا .. (١٢٥) ﴾ [النساء]

والحنف [3] أصله ميل فى الساق ، وتجد البعض من الناس حين يسيرون تظهر سيقانهم متباعدة ، وأقدامهم مُلْتَفَّة ، هذا اعوجاج فى التكوين.

أما المقصود هنا بكلمة (حنيفاً) أى : معوج عن الطريق المعوج ، أى : أنه يسير باستقامة.

ولكن : لماذا يأتى مثل هذا التعبير ؟

لأن الدين لا يجيء برسول جديد ومعجزة جديدة ، إلا إذا كان الفساد قد عَمَّ ؛ فيأتى الدين ؛ ليدعو الناس إلى الميل عن هذا الفساد. وفى هذا اعتدال لسلوك الأفراد والمجتمع.

ويحذرنا رسول الله ﷺ من أن نقع فى الشرك الخفى بعد الإيمان بالله تعالى.

---

(١) الدين : الطاعة والانقياد والشريعة والجزاء ، والعقيدة والمنهج والصراط المستقيم [القاموس القويم - باختصار صـ ٢٣٩].

(٢) الملة (بكسر الميم ، وتضعيف اللام) : الشريعة ، والدين . قال تعالى : ﴿ .. إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) ﴾ [يوسف] . وقال تعالى : ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ .. (٧٨) ﴾ [الحج] . [لسان العرب : مادة : م ل ل] . . بتصرف.

(٣) الحنف فى القدمين : إقبال كل واحدة منهما على الأخرى بإبهامها . ورجل أحنف ، وامرأة حنفاء ، وبه سُمِّى «الأحنف بن قيس» ، واسمه «صخر» ؛ لحنف كان فى رجله . قال الجوهرى : الحنف : الاعوجاج فى الرِّجْل . وقال أبو عمرو : الحنيف هو المائل من خير إلى شر ، أو من شر إلى خير . وحنف عن الشيء وتحنف : مال . والحنيف : المسلم الذى يتحنف عن الأديان ، أى : يميل إلى الحق ، وقيل : هو الذى يستقبل قبلة البيت الحرام على ملة إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا .. (٦٧) ﴾ [آل عمران] . وقيل : الحنيف هو الذى يميل عن الضلال ، ويبعد عنه ليتجه إلى الحق ، وقد صارت هذه الكلمة علماً على المسلمين . [لسان العرب : مادة (ح ن ف) - بتصرف].

ويأتى الكلام عن هذا الشرك الثانى فى قول الحق سبحانه :

﴿ ..وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) ﴾ [يونس]

وهذا الشرك الثانى هو أقل مرحلة من شرك العبادة ، ولكن أن تجعل لإنسان أو لأىِّ شىء مع الله عملاً .

فإن رأيت - مثلاً - للطبيب أو للدواء عملاً ، فَقُلْ لنفسك : إن الطبيب هو مَنْ يصف الدواء كمعالج ، ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذى يشفى ، بدليل أن الطبيب قد يخطىء مرة ، ويأمر بدواء تحدث منه مضاعفات ضارة للمريض .

• وعلى المؤمن ألا يُفتنَ فى أىِّ سبب من الأسباب .

ونذكر مثالاً آخر لذلك ، وهو أن بلداً من البلاد ذات الرقعة الزراعية المتسعة أعلنت فى أحد الأعوام أنها زرعت مساحة كبيرة من الأراضى بالقمح بما يكفى كل سكان الكرة الأرضية ، ونبتت السنابل وأينعتْ ، ثم جاءتها ريح عاصف أفسدت محصول القمح ، فاضطرت تلك الدولة أن تستورد قمحها من دول أخرى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٠٦) ﴾

والمشرك من هؤلاء لحظة أنْ عبدَ الصنم ودعاه من دون الله تعالى ، فهل استجاب له ؟ وحين عبده هل قال الصنم له : افعل كذا ، ولا تفعل كذا ؟

إن الأصنام التى اتخذها المشركون آلهة لم يكُنْ لها منهج ، ولا أحد منها

ينفع أو يضر ، وحين يجىء النفع لا يعرف الصنم كيف يمنعه ، وحين يجىء الضُّر لا يقدر الصنم أن يدفعه .

إذن : فمَنْ يدعو من دون الله - سبحانه وتعالى - هو دعاء لمن لا ينفع ولا يضر .

ومَنْ يفعل ذلك يكون من الظالمين ؛ لأن الظلم هو إعطاء حقٍّ لغير ذى حق ، سواء أكان فى القمة ، أو فى غير القمة[1] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾

هذا كلام الربوبية المستغنية عن الخلق ، فالله سبحانه وتعالى خلق الناس ، ودعاهم إلى الإيمان به ، وأن يحبوه ؛ لأنه يحبهم ، ويعطيهم ، ولا يأخذ منهم ؛ لأنه فى غنىً عن كل خلقه .

ويأتى الكلام عن الضُّر هنا بالمسِّ ، ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ .. ﴿١٠٧﴾ ﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن هناك «مساً» و«لمساً» و«إصابة» .

وقوله سبحانه هنا عن الضر يشير إلى مجرد المسِّ ، أى : الضر البسيط ، ولا تَقُلْ : إن الضر ما دام صغيراً فالخلق يقدرون عليه ، فلا أحد

---

(١) أى : سواء كان ظلماً فى القمة - أى : بالإشراك بالله - أو ظلماً فى غير القمة بظلم العباد بأخذ حقوقهم والتعدّى عليهم .

يقدر على الضر أو النفع ، قَلَّ الضر أم كَبُرَ ، وكَثُر النفع أو قَلَّ ، إلا بإذن من الله تعالى.

والحق سبحانه وتعالى يذكر الضر هنا بالمسّ ، أى : أهون الالتصاقات ، ولا يكشفه إلا الله سبحانه وتعالى.

ومن عظمته - جَلَّ وعلا - أنه ذكر مع المس بالضر ، الكشفَ عنه ، وهذه هى الرحمة.

ثم يأتى سبحانه بالمقابل ، وهو «الخير» ، وحين يتحدث عنه الحق سبحانه ، يؤكد أنه لا يرده.

ونحن نجد كلمة ﴿يُصيبُ﴾ فى وَصْف مجىء الخير للإنسان ، فالحق سبحانه يصيب به من يشاء مِنْ عباده.

ويُنهى الحق سبحانه وتعالى الآية بهذه النهاية الجميلة فى قوله تعالى :

﴿.. وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧)﴾ [يونس]

وهكذا تتضح لنا صورة جلال الخير المتجلى على العباد ، ففى الشر جاء به مسّاً ، ويكشفه ، وفى الخير يصيب به العباد ، ولا يمنعه.

والله تعالى هو الغفور الرحيم ؛ لأنه سبحانه لو عامل الناس - حتى المؤمنين منهم - بما يفعلون لعاقبهم ، ولكنه سبحانه غفور ورحيم ؛ لأن رحمته سبقت غضبه [1] ؛ ولذلك نجده سبحانه فى آيات النعمة يقول :

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا [2] .. (١٨)﴾ [النحل]

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «لما قضى الله الخلق كتب فى كتابه ، فهو عنده فوق العرش : إن رحمتى غلبت غضبى» أخرجه البخارى فى صحيحه (٣١٩٤) ومسلم (٢٧٥١).

(٢) الإحصاء : العد والحصر.

وجاء الحق سبحانه بالشكِّ ، فقال ﴿إن﴾ ولم يقل : «إذا تعدون نعمة الله» ؛ لأن هذا أمر لن يحدث ، كما أن الإقبال على العَدِّ هو مظنَّة أنه يمكن أن يحصى ؛ فقد تُعدُّ النقود ، وقد يَعدّ الناظر طلاب المدرسة ، لكن أحداً لا يستطيع أن يعُدّ أو يُحصى حبَّات الرمال مثلاً .

وقال الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا.. (١٨)﴾ [النحل]

وهذا شَكٌّ فى أن تعدوا نعمة الله .

ومن العجيب أن العدَّ يقتضى التجمع ، والجمع لأشياء كثيرة ، ولكنه سبحانه جاء هنا بكلمة مفردة هى ﴿نِعْمَةَ﴾ ولم يقل : «نِعَم» فكأن كل نعمة واحدة مطمور فيها نِعَمٌ شتَّى .

إذن : فلن نستطيع أن نعدَّ النِّعَم المطمورة فى نعمة واحدة .

وجاء الحق سبحانه بذكر عَدِّ النعم فى آيتين :

الآية الأولى تقول :

﴿..وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (١) (٣٤)﴾ [إبراهيم]

والآية الثانية تقول :

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨)﴾ [النحل]

(١) ظلوم : صيغة مبالغة من (الظلم) ، أى : كثير الظلم لنفسه أو لغيره ، أو لهما معاً .
وكفَّار : صيغة مبالغة من (الكفر) ، أى : شديد الكفر ، والكفر فى اللغة : الستر ، من ستر الشىء إذا أخفاه . فكأن الإنسان بعدم شكر الله على النعمة يكون قد كفرها . أى : سترها وأخفاها ولم يؤدِّ حقها من الذكر والشكر .

وصَدْر الآيتين واحد ، ولكن عَجُزَ كل منهما مختلف ، ففى الآية الأولى : ﴿ .. إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم]

وفى الآية الثانية : ﴿ .. إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [النحل]

لأن النعمة لها مُنْعِم ؛ ومُنْعَم عليه ، والمنعَم عليه - بذنوبه - لا يستحق النعمة ؛ لأنه ظلوم وكفار . ولكن المنعم سبحانه وتعالى غفور ورحيم ، ففى آية جاء مَلْحظ المنعِم ، وفى آية أخرى جاء ملحظ المنعَم عليه .

ومن ناحية المنعَم عليه نجده ظَلُوماً كفَّاراً ؛ لأنه يأخذ النعمة ، ولا يشكر الله عليها .

ألم تَقُلْ السماء : يارب! ائذن لى أن أسقط كِسَفاً على ابن آدم ؛ فقد طَعِم خيرك ، ومنع شكرك .

وقالت الأرض : ائذن لى أن أنخسف بابن آدم ؛ فقد طَعِم خيرك ، ومنع شكرك .

وقالت الجبال : ائذن لى أن أسقط على ابن آدم .

وقال البحر : ائذن لى أن أغرق ابن آدم الذى طَعِم خيرك ، ومنع شُكْرك .

هذا هو الكون الغيور على الله تعالى يريد أن يعاقب الإنسان ، لكن الله سبحانه رب الجميع يقول : « دعونى وعبادى ، لو خلقتموهم لرحمتموهم ، إنْ تابوا إلىَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم » .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ[1] ﴿١٠٨﴾ ﴾

إذن: فالحق سبحانه لم يُقصِّر مع الخلق ، فقد خلق لكم العقول ، وكان يكفى أن تفكّروا بها لتؤمنوا من غير مجىء رسول ، وكان على هذه العقول أن تفكر فى القوىُّ الذى خلق الكون كله ، بل هى التى تسعى لتطلب أن يرسل لها القوىّ رسولاً بما يطلبه سبحانه من عباده ، فإذا ما جاء رسول ليخبرهم أنه رسول من الله ويحمل البلاغ منه ، كان يجب أن تستشرف آذانهم لما يقول.

إذن: كان على العباد أن يهتدوا بعقولهم ؛ ولذلك نجد أن الفلاسفة حين بحثوا عن المعرفة ، قالوا : إن هناك «فلسفة مادية» تحاول أن تتعرف على مادية الكون ، وهناك «فلسفة ميتافيزيقية»[2] تبحث عما وراء المادة.

فَمَنْ أعلمَ الفلاسفة - إذن - أن هناك شيئاً وراء المادة.

وكأن العقل المجرد ساعةَ يرى نُظُم الكون الدقيقة كان يجب أن يقول: إن وراء الكون الواضح المُحَسِّ قوة خفية.

ولم يذهب الفلاسفة إلى البحث فيما وراء المادة ، إلا لأنهم أخذوا من

---

(١) الوكيل: الكفيل الموكل بأرزاق الناس وأمورهم، والحفيظ الذى يحفظ أعمال الناس. قال سبحانه: ﴿ ..وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنعام] ، وقد نفى الله سبحانه هذا عن نبيه ورسوله محمد ﷺ .

(٢) الفلسفة : لفظ يونانى ومعناه البحث عن الحقيقة . والميتافيزيقا: ما وراء الطبيعة والكون. أى: الغيبيات التى لا تخضع لقوانين المادة.

المادة أن وراءها شيئاً مستوراً.

والمستور الذى وراء المادة هو الذى يعلن عن نفسه ، فهو أمر لا نعرفه بالعقل.

وقديماً ضربنا مثلاً فى ذلك ، وقلنا: هَبْ أننا جالسون فى حجرة ، ودقَّ جرس الباب ، فعلم كل مَنْ فى الحجرة أن طارقاً بالباب ، ولم يختلف أحد منهم على تلك الحقيقة.

وهذا ما قاله الفلاسفة حين أقرُّوا بوجود قوة وراء المادة ، ولكنهم تجاوزوا مهمتهم ، وأرادوا أن يُعرِّفونا ماهية أو حقيقة هذه القوة ، ولم يلتفتوا إلى الحقيقة البديهية التى تؤكد أن هذه القوة لا يمكن أن تُعْرَف بالعقل ؛ لأننا ما دُمْنا قد عرفنا أن بالباب طارقاً يدق ؛ فنحن لا نقول من هو ، ولا نترك المسألة للظن ، بل نتركه هو الذى يحدد لنا مَنْ هو ، وماذا يطلب؟ لأن عليه هو أن يخبر عن نفسه.

اطلبوا منه أن يعلن عن اسمه وصفاته ، وهذه مسائل لا يمكن أن نعرفها بالعقل.

إذن: فخطأ الفلاسفة أنهم لم يقفوا عند تعقُّل أن هناك قوة من وراء المادة ، وأرادوا أن ينتقلوا من التعقُّل إلى التصور ، والتصورات لا تأتى بالعقل ، بل بالإخبار.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ قُلْ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ .. (١٠٨) ﴾ [يونس]

والحق - كما نعلم - هو الشيء الثابت الذى لا يتغير أبداً ، وأن يأتى

الحق من الرب الذى يتولى التربية بعد أن خلق من عدم وأمدَّ من عُدْم [1] ، ولا يكلفنا بتكاليف الإيمان إلا بعد البلوغ ، وخلق الكون كله ، وجعلنا خلفاء فيه .

هو - إذن - مأمون علينا ، فإذا جاء الحق منه سبحانه وتعالى ، فلماذا لا نجعل المنهج من ضمن التربية ؟

لماذا أخذنا تربية المأكل والملبس وسيادة الأجناس ؟

كان يجب - إذن - أن نأخذ من المربِّى - سبحانه وتعالى - المنهج الذى ندير به حركة الحياة ؛ فلا نفسدها .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ جَاءَكُمُ الْحَقُّ [2] مِن رَّبِّكُمْ .. (١٠٨) ﴾ [يونس]

فمعنى ذلك أنه لا عُذْر لأحد أن يقول : «لم يُبلغنى أحدٌ بمراد الله » ، فقد ترك الحق سبحانه العقول لتتعقل ، لا أن تتصور .

وجاء التصورُ للبلاغ عن الله تعالى ، حين أرسل الحق سبحانه رسولاً يقول : أنا رسول من الله ، وهو القوة التى خلقت الكون ، وكان علينا أن نقول للرسول بعد أن تَصْدُق معجزته : أهلاً ، فأنت مَنْ كنا نبحث عنه ، فَقُلْ لنا : ماذا تريد القوة العليا أن تبلغنا به ؟

ثم يقول الحق سبحانه فى نفس الآية :

---

(١) العَدَم والعُدْم والعُدُم : فقدان الشىء وذهابه . ومثله فى ضبط حروف الكلمة : الرُّشْد والرَّشَد - الحُزْن والحَزَن . ومثله قوله تعالى : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ .. (٢٥٦) ﴾ [البقرة] . وقوله تعالى : ﴿ .. رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) ﴾ [الكهف] .

(٢) الحق : الأمر الثابت ضد الباطل ، والحق من أسماء الله الحسنى ، والحق القرآن ، والحق العدل والصدق والحكمة والبعث وكمال الأمر ، والحق الواقع الثابت الذى لا خلاف فيه ، قال تعالى : ﴿ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٥٥) ﴾ [يونس] ، والحق ما وجب عليك لغيرك [القاموس القويم بتصرف صـ ١٦٤ ، ١٦٥] .

﴿ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ .. (١٠٨) ﴾ [يونس]

لأن حصيلة هدايته لا تعود على مَنْ خلقه وهداه ، بل تعود عليه هو نفسه انسجاماً مع الكون ، وإصلاحاً لذات النفس ، وراحة بال ، واطمئناناً ، وانتباهاً لتعمير الكون بما لا يفسد فيه ، وهذا الحال عكس ما يعيشه مَنْ ضل عن الهداية .

ويقول الحق سبحانه عن هذا الصنف من الناس :

﴿ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا .. (١٠٨) ﴾ [يونس]

وكلمة ﴿ضَلَّ﴾ تدل على أن الإنسان الذى يضل كانت به بداية هداية ، لكنه ضَلَّ عنها .

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (١٠٨) ﴾ [يونس]

وأنت لا توكِّل إنساناً إلا لأن وقتك لا يسع ، وكذلك قدرتك وعلمك وحركتك ، وهنا يُبلغ الرسول القوم : أنا لا أقدر أن أدفع عنكم الضلال ، أو أجبركم على الهداية ؛ لأنى لست وكيلاً عليكم ، بل علىَّ فقط مهمة البلاغ [1] عن الله سبحانه وتعالى ، وهذا البلاغ إن استمعتم إليه بخلاء القلب من غيره ، تهتدوا .

وإذا اهتديتم ؛ فالخير لكم ؛ لأن الجزاء سيكون خلوداً فى نعيم تأخذونه مقابل تطبيق المنهج الذى ضيَّق على شهوات النفس ، ولكنه يهدى حياة نعيم لا يفوته الإنسان ، ولا تفوت النعم فيه الإنسان .

---

(١) وقد ورد تأكيد هذا فى آيات كثيرة من القرآن الكريم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ .. (٤٨) ﴾ [الشورى] . وقال تعالى : ﴿ .. وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤) ﴾ [النور] . فكل المطلوب من الرسول هو إبلاغ رسالته ، وأن يكون هذا البلاغ مبيناً جلياً واضحاً .

وإذا كان الإنسان منَّا يقبل أن يتعب ؛ ليتعلَّم حرفة أو عملاً أو صنعة أو مهنة ؛ ليكسب الإنسان من إتقان هذا العمل بقية عمره.

أليس على هذا الإنسان أن يُقبل على العبادة التى تصلح باله ، وتسرع به إلى الغاية انسجاماً مع النفس ، ومع المجتمع ، وتقويماً وتهذيباً لشهوات النفس ، وينال من بعد ذلك خلود النعيم فى الآخرة.

أما من يستكثر على نفسه الجدَّ والاجتهاد فى تحصيل العلم ، أو تعلُّم مهنة أو حرفة ، فهو يحيا فى ضيق وعدم ارتقاء ، فهو لا يبذل جهداً فى التعلّم.

ونرى مَنْ يتعلم ويبذل الجهد ، وهو يرتقى فى المستوى الاجتماعى والاقتصادى ؛ ليصل إلى درجة الدكتوراة - مثلاً - أو التخصص الدقيق الذى يأتى له بسَعة الرزق.

وكلما كانت الثمرة التى يريدها الإنسان أينع [1] وأطول عمراً كانت الخدمة من أجلها أطول.

وقارن بين خدمتك لدينك فى الدنيا بما يتنظرك من نعيم الآخرة ؛ وسوف تجد المسافة بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة شاسعاً ، ولا مقارنة.

وقول الحق سبحانه:

﴿ وَمَن ضَلَّ [2] فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا .. (١٠٨) ﴾ [يونس]

---

(١) أينع : أكثر نُضجاً . واليَنْع : النضج . ومنه قوله تعالى : ﴿ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ .. (٩٩) ﴾ [الأنعام].

(٢) ضَلَّ الكافر : غاب عن الحجة المقنعة ، وعدل عن الطريق المستقيم ، ولم يعرف الحق . والضلال : النسيان والضياع . وضلَّ الشىء : خفى وغاب فهو فعل لازم ، وضل المسافر الطريق مُتعدٍّ : لم يعرفه . [القاموس القويم صـ ٣٩٤ - بتصرف] .

تجد فيه كلمة ﴿عَلَيْهَا﴾ وهى تفيد الاستعلاء على النفس ، أى: أنك بالضلال - والعياذ بالله - تستعلى على نفسك ، وتركب رأسك إلى الهاوية.

وفى المقابل تجد قول الحق سبحانه:

﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ .. (١٠٨)﴾ [يونس]

وتجد «اللام» هنا تفيد الملْك ؛ لذلك يقال: «فلان له» و«فلان عليه».

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه فى ختام سورة يونس:

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩)﴾

وإذا كان الحق سبحانه قد أورد على لسان رسوله ﷺ : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ..(١٠٨)﴾ [يونس]

فهذا يعنى البلاغ بمنهج الله - تعالى- النظرى ، ولا بُدَّ أن يثق الناس فى المنهج ، بأن يكون الرسول هو أول المنفذين للمنهج ، لأنه - معاذ الله - لو غشَّ الناس جميعاً لما غشَّ نفسه.

إذن: فبعد البلاغ [1] عن الحق سبحانه ، وتعريف الناس بأن الهداية

(١) البلاغ : اسم مصدر بمعنى الكفاية أو الإبلاغ أو التبليغ . قال تعالى : ﴿هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ ..(٥٢)﴾ [إبراهيم] وقال تعالى : ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦)﴾ [الأنبياء] أى : فيما ذُكر من الأخبار والمواعظ.

ومبلغ الشيء : حدّه ونهايته التى يصل إليها ، أو مقداره الذى ينتهى به . قال تعالى : ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ..(٣٠)﴾ [النجم] [القاموس القويم - بتصرف ١/ ٨٣ ، ٨٤].

لا يعود نفعها على الحق ، بل هى للإنسان ، فيملك نفسه ؛ ويملك زمام حياته ، فيسير براحة البال فى الدنيا إلى نعيم الآخرة ، وأن الضلال لا يعود إلا باستعلاء الإنسان على نفسه ؛ ليركبها إلى موارد التهلكة.

والرسول ﷺ ليس وكيلاً عنكم ، يأتى لكم بالخير حين لا تعملون خيراً ، ولا يصرف عنكم الشر وأنتم تعملون ما يستوجب الشر.

ولذلك كان على رسول الله ﷺ أن يكون هو النموذج والأسوة :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ [1] حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ [2] وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (٢١) ﴾ [الأحزاب]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ .. (١٠٩) ﴾ [يونس]

أى : عليك أن تكون الأسوة ، وحين تتَّبع ما يُوحَى إليك ؛ ستجد عقبات ممن يعيشون على الفساد ، ولا يرضيهم أن يوجد الإصلاح ، فَوطِّن العزم على أن تتبع ما يوحى إليك ، وأن تصبر.

---

(١) الأسوة : القدوة ، والمثل الأعلى الذى يُقتدى به . ورسول الله ﷺ هو أسوتنا وقدوتنا . وقد قال سبحانه عن إبراهيم عليه السلام أيضاً : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ .. (٤) ﴾ [الممتحنة] ثم قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ .. (٦) ﴾ [الممتحنة].

(٢) ورد الرجاء فى القرآن على معان عدة :

- منها : الطلب والأمل فى تحقق شىء ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ .. (٢١٨) ﴾ [البقرة] . وقوله تعالى : ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً .. (٦٠) ﴾ [النور].

- منها : الخوف ، مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨) ﴾ [يونس].

ومجىء الأمر بالصبر دليل على أن هناك عقبات كثيرة ، وعليك أن تصبر وتعطى النموذج لغيرك [1] ، والثقة فى أنه لو لم يكن هناك خير فى اتباع المنهج لما صبرت عليه ؛ حتى يأتى حكم الله ﴿ .. وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩) ﴾ [يونس]

وليس هناك أعدل ولا أحكم من الله سبحانه وتعالى.

وهذه السورة التى تُخْتَم بهذه الآية الكريمة ، تعرضت لقضية الإيمان بالله ، قمة فى عقيدة لإله واحد يجب أن نأخذ البلاغ منه سبحانه ؛ لأنه الرب الذى خلق من عَدَم ، وأمدَّ من عُدْم ، ولم يكلِّفنا إلا بعد مرور سنوات الطفولة وإلى البلوغ ؛ حتى يتأكد أن المكلَّف يستحق أن يُكلَّف بعد أن انتفع بخيرات الوجود كله ، وتثبَّت من صدق الربوبية.

ومعنى الربوبية هو التربية ، وأن يتولى المربِّى المربَّى إلى أن يبلغ حَدَّ الكمال المرجوّ منه.

وقد صدقتْ هذه القضية فى الكون.

إذن : نستمع إلى الرب - سبحانه وتعالى - الذى خلق ، حين يُبيِّن لنا مهمتنا فى الحياة بمنهج تستقيم به حركة الحياة ، ويستقيم أمر الإنسان مع الغاية التى يعرفها قبل أن يخطو أى خطوة.

ومن المحال أن يخلق الله - سبحانه وتعالى - المخلوق ثم يُضيِّعه ، بل لا بد أن يضع له قانون صيانة نفسه [2] ؛ لأن كل صنعة إنما يضع قانونها

---

(١) يقول سبحانه : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ .. (٣٥) ﴾ [الأحقاف]. فالصبر هو اقتداء بالرسل الأعلام ، الذين صبروا على إيذاء أقوامهم صبراً تعجز عنه قدرات البشر ، مثل : نوح وموسى وعيسى وإبراهيم ومحمد ﷺ.

(٢) يقول تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) ﴾ [القيامة]. قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٤٥٢) : «الآية تعمُّ الحالين . أى : ليس يترك فى هذه الدنيا مهملاً لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يترك فى قبره سدى لا يبعث ، بل هو مأمور منهى فى الدنيا ، محشور إلى الله فى الدار الآخرة».

ويحدد الغاية لها مَنْ صنعها ، فإذا ما خالفنا ذلك نكون قد أحَلْنا [1] وغيَّرنا الأمور ، وأدخلنا العالم فى متاهات ، وصار لكل امرىء غاية ، ولكل امرىء منهج ، ولكل عقل فكر ، ولَصار الكون متضارباً ؛ لأن الأهواء ستتضارب ، فتضعف قوة الأفراد ؛ لأن الصراع بين الأنداد [2] يُضعف قوة الفرد عن معالجة الأمر الذى يجب أن يعالجه.

فأراد الله - سبحانه وتعالى - توحيداً [3] فى العقيدة ، وتوحيداً فى المنهج.

وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يضرب لنا مثلاً تطبيقياً فى مواكب الرسالات ، فذكر لنا فى هذه السورة قصة نوح - عليه السلام - وقصة موسى وهارون - عليهما السلام - وذكر بينهما القصص الأخرى.

ثم ذكر قضية يونس عليه السلام.

ثم ختم السورة بقوله سبحانه:

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ .. ﴿١٠٩﴾ ﴾ [يونس]

بلاغاً عن الله تعالى.

وما دُمْتَ تبلّغ ، وأمتك أمة محسوبة - إلى قيام الساعة - أنها وارثة

---

(١) أحلنا الأمور: حوّلناها وبدلناها لغير ما وضعت له. وفى اللسان: كل شىء تغير عن الاستواء إلى العوج فقد حال واستحال. ويقال: حال الرجل يحول مثل تحوّل من موضع إلى موضع. (مادة: حول).

(٢) الأنداد: الأمثال والنظراء.

(٣) الرسالات فى جوهرها تسير بالتوحيد وعليه وبه ، يقول الحق سبحانه: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى].

النبوة ، ولم تَعُدْ هناك نبوة بعدك يا محمد ﷺ تسليماً كثيراً.

وأراد الحق سبحانه لأمتك أن يحملوا الدعوة للمنهج الذى نزل إليك.

إذن: فرسول الله ﷺ سيكون شهيداً بأنه قد بلّغ ، ويجب أن تكون أمته شهيدة بأنها بلغت ، وأوصلت رسالة الله إلى الدنيا [1] ، وهذا شرف مهمة أمة محمد ﷺ .

ولم يكن لأمة غيرها مثل هذا الشرف ؛ فقد كان الأمر قبل رسول الله ﷺ أن دعوة أيِّ رسول تفتُر ، وتبهت تكاليفه [2] ، ويغفل عنها الناس ، فيرسل الله - سبحانه وتعالى - رسولاً ، ولكن الأمر اختلف بعد رسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، فلم تَعُدْ هناك نبوة ، ولا رسالة ، ولكن صار هناك مَنْ يحملون منهج الله تعالى.

والرسول ﷺ هو الأسوة ؟ لأنه مُبلغ منهج الله ، وهو أسوة فى تطبيق قانون صيانة الإنسان وحركته ، ونموذج تطبيقى حتى لا يكلف الناس فوق ما تطيقه إنسانيتهم ؛ ولذلك كان يُصِر على أنه بشر ، وأوضح القرآن الكريم ذلك بلا أدنى غموض:

﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ..(٦) ﴾ [فصلت]

(١) يقول رب العزة سبحانه وتعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ..(١٤٣) ﴾ [البقرة]. وقال تعالى: ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨) ﴾ [الحج].

(٢) أى: يطول عليهم الزمن فتُنسى رسالة الرسول، ويقع فيها التحريف والتبديل والتغيير، وقد حدث أكثر هذا مع بنى إسرائيل.

ليؤكد صدق الأسوة ؛ لأنه ﷺ لو لم يكن بشراً وطلب من الناس أن يفعلوا مثله لقالوا: لن نستطيع لأنك لست مثلنا.

ولذلك نلحظ أن القرآن يؤكد على بشرية رسول الله ﷺ ، ولكنه ﷺ يزيد عن البشر باصطفاء الله سبحانه له ؛ ليكون رسولاً يُوحَى إليه ، فمهمته الرسالية الأولى أن يُبلغ هذا الوحى ، والمهمة الثانية أن يؤكد بسلوكه أنه مقتنع بهذا الوحى ويُطبِّقه على نفسه.

ويقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ [1] .. (٢١) ﴾ [الأحزاب]

وكان رسول الله ﷺ من ناحية الثراء أقلَّ الناس مالاً ، وهو غير متكبر ، ولا جبَّار ، وهو كنموذج سلوكى تتوازن فيه وبه كل الفضائل ؛ فلم يطلب لنفسه شيئاً ، بل إنه منع أقاربه وأهله من حقوق أقرها لغيرهم من المسلمين ، فأقاربه لم يُعطهم الحق فى أن يرثوا شيئاً مما يملكه بعد وفاته وقد حرمهم ؛ ليكونَ كل عمل صادر منه ﷺ أو ممن ينتسبون بالقرابة إليه هو عمل خالص لوجه الله تعالى.

وهذا السلوك هو عكس سلوك الرئاسات البشرية ، أو السلطات الزمنية ، فهذه الرئاسات أو تلك السلطات تفيض أول ما تفيض على نفسها بالخير ، ثم تفيضه على الدوائر القريبة منها حسب أقطار القرب ؛ فالقريب جداً يأخذ أولاً وكثيراً ، ومَنْ يبعد فى القرابة يأخذ الأقل حسب درجة بُعْده .

(١) الأسوة والإسوة: القدوة. ويقال: ائتس به ، أى: اقتد به وكُنْ مثله. قال الليث: فلان يأتسى بفلان ، أى: يرضى لنفسه ما رضيه ويقتدى به. وقال الهروى: تأسَّى به: اتبع فعله واقتدى به. [لسان العرب: مادة (أ س ا)].

لكن الذى فى دائرة القرابة مع رسول الله ﷺ لا يأخذ حتى ما يأخذه الفقير فى أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، وكأن الله سبحانه وتعالى يدلنا بذلك على أنه من العيب أن يكون الإنسان منسوباً لآل بيت النبوة ، ويكون موضعاً لأخذ الزكاة.

إذن: فالاتِّباع الذى أمر الله تعالى به ، هو اتباع الوحى بلاغاً ، واتباع ما يُوحَى به تطبيقاً ، وسيتطلب هذا مواجهة متاعب كثيرة ، وسيلقى عقبات من الجبابرة المتفعين بالفساد فى الأرض ، فلا بُدَّ أن يصادموا هذه الدعوات ؛ ليحافظوا على سلطتهم الزمنية ، فيأمر الحق سبحانه وتعالى رسوله ﷺ بأن يصبر ، وفى الأمر بالصبر إشارة إلى أن الرسول ﷺ مُقْبِل على عقبات فَلْيُعِدّ نفسه لتحمُّل هذه العقبات بالصبر [1].

وفى آية أخرى يأمره الحق سبحانه وتعالى أن يصبر ويصابر هو والمؤمنون.. يقول سبحانه:

﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا [2].. (٢٠٠)﴾ [آل عمران]

أى: إن صبرت ، فقد يصبر خَصْمك أيضاً ، وهنا عليك أن تصابره ، وكلمة «اصبر» توضح أن دعاة منهج الحق سبحانه لا بد أن يتعرضوا لمتاعب ، وإلا ما كانت هناك ضرورة لأن يجىء ، فلو كان العالم مستقيم الحركة ، فما ضرورة المنهج إذن ؟

---

(١) وقد كان الحق سبحانه يُعدُّ نبيه ﷺ لهذا ، من نحو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤)﴾ [الأنعام].

(٢) اصبروا على الطاعات والمصائب ، واصبروا عن المعاصى. وصابروا الكفار فلا يكونوا أشد صبراً منكم. ورابطوا أى: جاهدوا وأقيموا عليه واستمروا فيه. [تفسير الجلالين: ص٦٤]. وصيغة «صَابَرَ» من «فَاعَلَ» تدل على شدة الفعل والمبالغة فيه ، أى: شدة الصبر والتحمُّل. والاستمرار عليه حتى الوصول للهدف.

ولكن المنهج قد جاء ؛ لأن الفساد قد عَمَّ الكون ، ويحتاج إلى إصلاح ، وإلى مواجهة المفسدين ، وهذا ما يرهق الداعين إلى الله تعالى ، وليُوطِّن كل داعية نفسه على ذلك ، ما دام قد قام ليدعو إلى منهج الحق سبحانه وتعالى .

وكل داع إلى الله لا يصيبه أذى ، فهذا يُنقص من حظه في ميراث النبوة ؛ لأن الذي يأتي له الأذى هو الذي يأخذ حظاً من ميراث النبوة ، فالأذى لا يجيء إلا بمقدار خطورة الداعي إلى الله سبحانه على الفساد والمفسدين ، وهم الذين يتجمعون ضده .

ورسول الله ﷺ يقول : «نضَّر (١) الله امرأ سمع مقالتي فوعاها (٢) وحفظها وبلَّغها ، فرُبَّ حامل فقه إلى مَنْ هو أفقه منه» (٣) .

إذن : فنحن أمة محمد ﷺ قد ورثنا منه البلاغ ، وورثنا منه الأسوة الحسنة :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١) ﴾ [الأحزاب]

إذن : فقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ .. (١٠٩) ﴾ [يونس]

هو دليل على أن الوحي بصدد الإنزال ؛ لأن الوحي لم ينزل بالقرآن

---

(١) النضارة : إشراق الوجه ونوره .

(٢) وعاها : حفظها ، فكان كالوعاء يعي ما يوضع فيه ، وإن لم يدرك تفاصيل ما وعاه .

(٣) أخرجه الترمذي في سننه (٢٦٥٨) وأبو نعيم في حلية الأولياء (٧/ ٣٣١) من حديث عبد الله بن مسعود .

دَفْعة واحدة ، فقد كان الوحى ينزل على رسول الله ﷺ طوال حياته[(١)].

وهكذا تكون حياة رسول الله ﷺ هى مقام الاستقبال للوحى.

وقول الحق سبحانه:

﴿وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ..(١٠٩)﴾ [يونس]

يوضح لنا أنه سبحانه قد وضع حداً تؤمل فيه أن الأمر لن يظل صبراً ، وأن القضية ستُحسم من قريب بحكم من الله تعالى.

وكلمة ﴿يَحْكُمَ﴾ توضح أن هناك فريقين ؛ كُلٌّ يدَّعى أنه على حق ، ثم يأتى مَنْ يفصل فى القضية ، والحجة إما الإقرار أو الشهود ، وبطبيعة الحال لن يُقرَّ الكفار بكفرهم ، والشهود قد يكونون عُدولاً ، أو يكونون ممن يُدارون فسْقهم فى ظاهر العدالة. فإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الحاكم ، فهو لا يَحتاج إلى شهود ؛ لأنه خير الشاهدين ، والله سبحانه لا يحكم فقط دون قدرة إنفاذ الحكم ، لا بل هو يحكم وينفذ.

إذن: فهو سبحانه قد شهد وحكم ونفَّذ ، ولا توجد قوة تقف أمام قدرة الله تعالى ، أو تقف أمام حكم الله عز وجل.

ونحن فى زماننا نرى القُوى وهى تختلف ، فنجد القوىَّ من الدول وقد تسلَّط على الضعيف ، فيلجأ الضعيف إلى الأمم المتحدة ومجلس الأمن ، ويصدر كل منهما قرارات ، وحتى لو افترضنا عدالة الحكم ، فأين قوة التنفيذ ؟ إنها غير موجودة.

---

(١) أى: كان ينزل مُنجّماً على حسب الأحوال والوقائع ، وهذا جعل القرآن بالنسبة لأصحاب رسول الله ﷺ غضاً رطباً ، لأنه ينزل بما يناسب حالهم. ومعلوم أن القرآن له تنزُّل آخر ، حيث نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا. راجع الإتقان فى علوم القرآن (١/ ١١٦).

ولكن قدرة الحق الأعلى سبحانه هى قدرة خير الحاكمين ، لأنه هو سبحانه الذى يشهد ، وهو سبحانه لا يحتاج إلى مَنْ يُدلِّس عليه فى الشهادة ؛ لأنك إن عمِّيت على قضاء الأرض ، فلن تُعمِّى على قضاء السماء [1].

وبعد ذلك يحكم الحق سبحانه حُكْماً لا هوى فيه ؛ لأن آفة الأحكام أن يدخلها الهوى فتميل ، والحق سبحانه لا هوى له ؛ لأنه لا مصلحة له عند العباد ، فهو الخالق عز وجل ، ولن يأخذ مصلحة من مخلوق [2].

ويطمئننا الحق سبحانه على أن رسوله ﷺ أيضاً لا ينطق عن الهوى .

فيقول رب العزة سبحانه :

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ [3] ③ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ④ ﴾ [النجم]

---

(١) عن أم سلمة عن رسول الله ﷺ «أنه سمع خصومة بباب حجرته ، فخرج إليهم فقال : إنما أنا بشر ، وإنه يأتينى الخصم ، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض ، فأحسب أنه صدق فأقضى له بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار ، فليأخذها أو ليتركها» أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٥٨) ومسلم (١٧١٣) .

(٢) يقول سبحانه : ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ .. ㊲ ﴾ [الحج]. فالله تعالى هو الغنى عما سواه ، وقد كان أهل الجاهلية إذا ذبحوا الهدايا والضحايا لآلهتهم وضعوا عليها من لحوم قرابينهم ونضحوا عليها من دمائها . فبيَّن عز وجل أن ما يناله الله منهم هو التقوى وإخلاص القلب لله . (تفسير ابن كثير ٣/ ٢٢٤ بتصرف).

(٣) الهوى : هوى النفس ، وإرادتها ومحبتها الشيء ، قال تعالى : ﴿ .. وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ㊵ ﴾ [النازعات] أى : منعها عن المعاصى والشهوات ، وإذا تكلم بالهوى مطلقاً لم يكن إلا مذموماً حتى يُنعت بما يخرجه عن معناه كقولهم : هوى حسن ، أو هوى موافق للصواب . أما المراد به فى الآية فهو الهوى المذموم . قال تعالى : ﴿ .. فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ⑬⑤ ﴾ [النساء] . وقال تعالى : ﴿ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. ㉖ ﴾ [ص] . وقال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ .. ㊸ ﴾ [الفرقان] وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ .. ㊿ ﴾ [القصص] . وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ .. ㊆㊆ ﴾ [المائدة] . وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ .. ⑪⑨ ﴾ [الأنعام]. [لسان العرب : مادة (هـ و ى) - بتصرف].

أي: اطمئنوا إلى حكمه ؛ لأنه لا ينطق عن هوى فليس فى نفسه ما يريد تحقيقه إلا دعوة الخلق إلى حُسْن عبادة الخالق سبحانه.

وقد يقول قائل: ولكن الحق - عز وجل - عدَّل للرسول بعضاً من الأحكام.

ونقول: لقد كان رسول الله ﷺ يجتهد ببشريته فيما لم يُنزل الله فيه حُكْماً ، وحين يُنزل الله حُكْماً ، فهو ﷺ ينزل على أمر الله تعالى ، ولم يكن رسول الله ﷺ يحكم حتى فيما اجتهد فيه عن هوى ، بل حكم بما رآه عدلاً ، وحين يُنزل الحق سبحانه وتعالى حُكْماً مغايراً فهو يبلغ المسلمين ويُعدِّل من الحكم.

إذن: فالتعديل للحكم هو قمة الأمانة مع البلاغ عن الله سبحانه وتعالى ، ورسول الله ﷺ قد أقبل على الحكم فى أمر لم ينزل فيه حكم من الله ، فهو قد حكم بما عنده من الرأى ، فيبلغ ﷺ الحكم من الله ، والذى عدَّل له ليس مساوياً له بل هو خالقه.

ثم إن الذى أخبرنا أن الله سبحانه قد عدَّل له هو النبى ﷺ ، فهل يوجد مَنْ يُضعف مركز كلمته ، ويبلغ أن الحكم الذى صدر منه قد عُدِّل له ؟

ولكن رسول الله ﷺ الذى استقبل الوحى تحلّى بأمانة البلاغ عن الله ، وهو الذى نقل لنا عتاب ربه له (١).

---

(١) عاتبه ربه فى شأن عبد الله بن أم مكتوم الأعمى الذى جاءه يسعى ليتعلم منه ، فتلهَّى عنه رسول الله ﷺ بدعوة زعماء قريش للإيمان ، فنزلت سورة عبس: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠)﴾ [عبس]. وعاتبه أيضاً بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١)﴾ [التحريم].

وهذه قمة الصدق فى البلاغ عن الله ، وكان اجتهاد رسول الله ﷺ محصوراً فى الأمور التى لم يصدر فيها حكم من الله ، وكان فى ذلك أسوة حسنة لنا لنتجرأ ونجتهد.

وقد بعث رسول الله ﷺ معاذ بن جبل إلى اليمن فقال : كيف تصنع إن عرض لك قضاء ؟ قال : أقضى بما فى كتاب الله . قال : فإن لم يكن فى كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله ﷺ . قال : فإن لم يكن فى سنة رسول الله ﷺ ؟ قال : أجتهد رأيى لا آلو[1] . قال : وضرب رسول الله ﷺ صدرى ثم قال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله ﷺ لما يُرضى رسول الله ﷺ[2] .

والحق سبحانه وتعالى خير الحاكمين ؛ لأنه الشاهد الذى يعلم خائنة الأعين وما تُخفى الصدور[3] ، وهو سبحانه لا تخفى عليه خافية[4] ، ولا هوى له ، وهو الذى يصدر الحكم بمطلق عدله وبفضله ، وهو القادر على إنفاذ ما يحكم به ، ولا توجد قوة تجُير عليه ، ولا يوجد حاكم بقادر

---

(١) لا آلو : لا أقصِّر فى اجتهادى وبحثى المسألة . ومنه قولهم : فلان لا يألو خيراً . أى : لا يدعه ولا يزال يفعله . ويقول سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً .. (١١٨) ﴾ [آل عمران] أى : لا يقصرون فى فسادكم .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٢٣٠ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢) وأبو داود فى سننه (٣٥٩٢) والترمذى (١٣٢٧) وقال : ليس إسناده عندى بمتصل . لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

(٣) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩) ﴾ [غافر] . فالله عز وجل يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة ، ويعلم ما تنطوى عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر . قال ابن عباس رضى الله عنهما : هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم ، وفيهم المرأة الحسناء ، أو تمر به وبهم المرأة الحسناء فإذا غفلوا لحظ إليها ، فإذا فطنوا غضَّ بصره عنها ، فإذا غفلوا لحظ ، فإذا فطنوا غضَّ ، وقد اطلع الله من قلبه أنه ود أن لو اطلع على فرجها . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٧٥) .

(٤) يقول عز وجل : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩) سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠) ﴾ [الرعد] .

على كل هذا إلا الله سبحانه .

وشاء الحق - عز وجل - أن يكرِّم المؤمنين الذين يحكمون بين الناس بأن جعل ذاته ضمنية بتفوق الخيرية على الحاكمين .

وواقع الأمر أن هناك بشراً يحكمون غيرهم ، ولكن الحق سبحانه حكم بأنه خيرهم ، فمن الحاكمين مَنْ قد يُدلس [1] عليه غيره ، ومن الممكن أن يدخل الهوى فى أحكام هؤلاء الحاكمين ، لكنه سبحانه لا تَخْفى عليه خافية ، ولا يمكن أن يدخل الهوى إلى حكمه ، وأحكامه نافذة بطلاقة قدرته سبحانه ؛ لذلك فهو خير الحاكمين إطلاقاً .

وإذا سمعت جمعاً يدخل الله ذاته مع خلقه فيه ؛ فاعلم أن ذلك إيذان بأن تأخذ من واقع ما تشهد حقيقة مَنْ لا تشهد ؛ فالحق سبحانه يقول :

﴿ ..فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون]

ويقول تعالى :

﴿ ..وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١) ﴾ [الجمعة]

ويقول تعالى :

﴿ ..رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) ﴾ [الأنبياء]

ويقول تعالى :

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (٨) ﴾ [التين]

وكلما وجدت جَمْعاً أدخل الله ذاته مع عباده ممن لهم هذا الوصف ، فهذا يَدلُّك على أن الموصوفين معه لهم تلك الصفات المذكورة ، ولكنه

---

(١) التدليس : الإخفاء والمخادعة بعدم تبيين العيب فى الشىء . ومنه التدليس فى الإسناد بأن يُحدِّث المحدِّث عن شيخه الأكبر بما لم يسمعه منه ، بل سمعه ممن هو دونه فى المرتبة .

سبحانه وتعالى أزلىٌّ مُطْلق الصفات ، وهم أحداث [1] وأغيار تنتابهم القوة والتغيُّر والضعف .

وتجد الله سبحانه وتعالى وهو يَصِفُ نفسه بأنه :

﴿ ..أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون]

وكلنا نعلم أن الله سبحانه هو خالق كل شىء من عدم ، ولكن هناك من الخلق مَنْ يخلق شيئاً من موجود ؛ ولذلك فالله سبحانه وتعالى هو أحسن الخالقين .

والحق سبحانه يصف نفسه بأنه :

﴿ .. خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الجمعة]

والرزق هو ما به يُنتفع ، وقد يأتى لك ولىٌّ أمرك بالمأكل والمشرب والملبس ، ويعطيك ما تنتفع به ، ولكن الحق سبحانه وتعالى هو الذى خلق الرزق فى الكون كله .

ويقول الحق سبحانه واصفاً نفسه :

﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [آل عمران]

والإنسان حين يمكر قد يُدارى مسألة ، ويغفل عن ركن فيها ، لكن الله تعالى لا يغفل عن شىء .

إذن : فالخيرية فى الحكم لها نصيب من طلاقة قدرة الله تعالى ، ونحن عرفنا أن الرسول ﷺ حين حكم فى بعض الأحكام وعدَّلها له الله سبحانه وتعالى ، لم يكن لله تعالى حكم قبل أن يحكم رسول الله ﷺ .

---

(١) الأحداث : جمع حادث ، وهو ما يكون مسبوقاً بالعدم ، ويسمى حدوثاً زمانياً ، وقد يُعبَّر عن الحدوث بالحاجة إلى الغير ، ويسمى حدوثاً ذاتياً . (التعريفات للجرجانى - ص ٧١) .

ومثال ذلك: قصة زيد بن حارثة [١] ، وكان مولى أو عبداً لخديجة بنت خويلد [٢] رضى الله عنها ، ووهبته لسيدنا رسول الله ﷺ ، ثم علم أهله الذين كانوا يبحثون عنه أنه فى مكة ، وكان قد خُطف صغيراً من بلده وبيع فى مكة ، كعادة العرب فى الجاهلية مع الرقيق [٣] ، فلما علموا بذلك ذهبوا إلى رسول الله ﷺ ليستردوا ابنهم ، فقال لهم رسول الله : « والله إنى لأخَيِّره ، فإن اختاركم فخذوه ، وإن اختارنى فهو لى». فاختار زيد أن يبقى مع رسول الله ﷺ.

ولم يكن رسول الله بعد ذلك ليفرِّط فيه ؛ فأعطاه شرف البنوَّة ، فأسماه زيد بن محمد [٤] .

---

(١) زيد بن حارثة بن شراحيل ، صحابى ، من أقدمهم إسلاماً ، كان ﷺ لا يبعثه فى سرية إلا أمَّره عليها ، وجعل له الإمارة فى مؤتة ، فاستشهد فيها عام ٨ هـ (الأعلام ٣/ ٥٧).

(٢) هى : زوج رسول الله ﷺ تزوجها قبل البعثة بـ ١٥ عاماً ، وأول مَنْ صدَّقت ببعثته ﷺ ، كانت مُوسِرةً ، تَاجَر رسول الله بمالها ، وكانت خير معين له فى رسالته . توفيت سنة عشر من البعثة بعد خروج بنى هاشم من الشِّعب . راجع الإصابة فى تمييز الصحابة (٨/ ٦٠ - ٦٢) .

(٣) الرقيق: العبيد ، وقد سُمِّى العبيد رقيقاً لأنهم يرقون لمالكهم ويذلون ويخضعون . [راجع اللسان مادة رقق] وقال الجرجانى فى التعريفات (ص ٩٩) : «الرق فى اللغة: الضعف. ومنه رقة القلب ، وفى عُرْف الفقهاء عبارة عن عجز حكمى شرع فى الأصل جزاء عن الكفر . أما إنه عَجْز فلأنه لا يملك ما يملكه الحر من الشهادة والقضاء وغيرهما ، وأما إنه حكمى فلأن العبد قد يكون أقوى فى الأعمال من الحرّ حسًّا».

(٤) وذلك أن حَارثة بن شراحيل جاء هو وأخوه كعب عم زيد إلى رسول الله ﷺ بمكة ، وذلك قبل الإسلام، فقالا له: يا بن عبد المطلب ، يا بن سيد قومه ، أنتم جيران الله ، وتفكون العانى (الأسير) ، وتطعمون الجائع ، وقد جئناك فى ابننا عبدك ، فتحسن إلينا فى فدائه ، فقال: أو غير ذلك؟ فقالا: وما هو؟ فقال: أدعوه وأخيِّره ، فإن اختاركما فذاك ، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى أحداً ، فقالا له: قد زدت على النصف ، فدعاه رسول الله ﷺ ، فلما جاء قال: من هذان؟ فقال: هذا أبى حارثة بن شراحيل ، وهذا عمى كعب بن شراحيل ، فقال: قد خيرتك إن شئت ذهبت معهما ، وإن شئت أقمت معى ، فقال: بل أقيم معك. فقال له أبوه: يا زيد ، أتختار العبودية على أبيك وأمك وبلدك وقومك؟ فقال: إنى قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ، وما أنا بالذى أفارقه أبداً ، فعند ذلك أخذ رسول الله ﷺ بيده ، وقام به إلى الملأ من قريش فقال: اشهدوا أن هذا ابنى وارثاً وموروثاً. فطابت نفس أبيه عند ذلك ، وكان يُدعى زيد بن محمد ، حتى أنزل الله تعالى : ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. ⦗٥⦘ ﴾ [الأحزاب].

وهكذا رأى النبى ﷺ فى التبنِّى وسيلة تكريم ، ولكن الله عز وجل يريد أمراً غير هذا ، فقال سبحانه وتعالى :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأحزاب]

لأن الأبوة بالتبنِّى قد تُحدث خَلْطاً فى الأنساب ، فالابن بالتبنى له حق الزواج من ابنة مَنْ تبنَّاه ، فكيف نمنع عنه هذا الحق ، والابن بالتبنى قد تحرم عليه زوجة مَنْ تبناه إن رحل عنها أو طلقها .

لذلك شاء الحق سبحانه وتعالى أن يحفظ للأنساب حقوقها ومسئولياتها ، فقال سبحانه :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأحزاب]

ومهمته ﷺ كرسول من الله بالنسبة لكم أفضل من الأبوة لكم .

وقال الحق سبحانه فى تعديل حكم التبنى :

﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ [1] عِندَ اللَّهِ .. ﴿٥﴾ ﴾ [الأحزاب]

وهذا ردٌّ لحكم من رسول الله بتكريم لرسول الله ، فما صنعه محمد ﷺ عَدْلٌ وقسْط بعُرْف البشر ، لكن حكم الله سبحانه وتعالى هو الأقسط والأعدلَ ، فينتهى بذلك نسب زيد من محمد ، ويعود إلى نسبه الفعلى «زيد بن حارثة» .

---

(١) القسط : العدل والحق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ..وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [المائدة] . أما القاسطون فهم الجائرون ، قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الجن] .

وحتى لا يؤثر هذا الأمر فى نفس زيد ، نجد الحق سبحانه وتعالى يكرمه تكريماً لم يُكرِّمه لصحابى غيره ، فهو الصحابى الوحيد الذى ذُكِر اسمه بالشخص والعَلَم فى القرآن ، فقال الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا [1] زَوَّجْنَاكَهَا .. (٣٧) ﴾ [الأحزاب]

وصار اسم «زيد» كلمة فى القرآن تُتْلَى ويُجْهَر بها فى الصلاة ، فإذا كان قد نفى عنه النسب إلى محمد ﷺ فقد أعطاه ذِكْراً ثانياً خالداً فى القرآن المحفوظ ، ومنحه بذلك شرفاً كبيراً.

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ .. وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩) ﴾ [يونس]

يفيد أن حكم الله تعالى أعمُّ من أن يكون حكماً فى الدنيا أو الآخرة فقط ، فحكم الله سبحانه فى الدنيا نَصْرٌ لدين الله ، ومَنْ مات من المؤمنين أو الكفار لهم حكم آخر.

وختم الله تعالى سورة يونس بهذا الحكم ، وأهدى الله سبحانه كل مؤمن بيونس - كنبى من أنبياء الله تعالى - قضية عندما ذهب مغاضباً ، قال فيه الحق سبحانه :

﴿ وَذَا النُّونِ [2] إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأنبياء]

وأهداه الحق سبحانه وساماً بقوله :

---

(١) الوطر : قال الليث : الوطر كل حاجة كان لصاحبها فيها همة ، فهى وطره ، وجمع الوطر : أوطار. وقال الزجاج : الوطر والأرب فى اللغة بمعنى واحد . وقال الخليل بن أحمد : الوطر كل حاجة يكون لك فيها همة ، فإذا بلغها البالغ قيل : قضى وطره وأربه . [لسان العرب : مادة (و ط ر)].

(٢) النون : الحوت . وذو النون : لقب يونس بن متى عليه السلام . أى : صاحب الحوت ، وهو الحوت الذى ابتلع يونس عليه السلام بعد إلقائه فى البحر .

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ [1] .. (٨٨) ﴾ [الأنبياء]

وأشركنا الحق سبحانه وتعالى فى هذا الوسام بقوله تعالى:

﴿ ..وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾ [الأنبياء]

وهكذا أسدى [2] إلينا سيدنا يونس جميلاً كبيراً، حين هداه الله إلى قوله:

﴿ .. لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأنبياء]

واستجاب الله تعالى لدعائه ، وأنجاه من الغَمِّ ، وهو أعنف جنود الله ؛ لأن الشيء الذى يضايقك هو الذى لا تستطيع له دَفْعاً.

ولذلك يقال: إن العدو كلما لَطُفَ [3] عَنُفَ ؛ لأن العدو إن كان ضخم الحجم ، تكون الوقاية منه أسهل من العدو الصغير سريع الحركة ، فإن كان العدو ضخماً ، فالإنسان يرى ضخامته من على البُعْد ، فيجرى منه الإنسان أو يختبىء ، لكن إن كان العدو ثعباناً رفيعاً - مثلاً - فقد لا يراه الإنسان ، وقد لا يستطيع الفرار منه ، وإنْ كان ميكروباً أو فيروساً لا يُرى بالعين المجرَّدة ؛ فهو أعنفُ قدرةً وقوةً فى مهاجمة الإنسان.

إذن: كل مُتْعب فى الدنيا من الممكن أن تحتاط منه إلا ما يتلصَّص عليك بدقَّة ولُطْف ؛ فإنك لا تعرف مدخله.

ونحن نسمع أن فلاناً قد أصيب بمرض ما ، لأنه أخذ عدوى من فيروس ما ، هذا الإنسان لا يعرف متى اخترق الفيروس جسده ، لكنه فوجىء

---

(١) غم الشيء يغمه غماً : أخفاه وغطّاه وستره .
وغمّه الأمر : أحزنه .
قال تعالى : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ .. (٨٨) ﴾ [الأنبياء]
والغمة : التباس الأمر وعدم وضوحه ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً .. (٧١) ﴾ [يونس]
[القاموس القويم - ٢ / صـ ٦٠ ، ٦١ بتصرف]

(٢) أسدى: أعطى ، وأهدى. [لسان العرب : مادة (س د ى)].

(٣) لطف الشيء يلطف : صَغُر . [لسان العرب : مادة (ل ط ف)].

بأعراض المرض تظهر عليه بعد كمون [١] الفيروس فى جسده لأسبوعين ، وهكذا نجد أن العدو كلما لَطُفَ عَنُفَ.

والغمُّ من أشد وأقسى أنواع البلاء ، وكلنا نعرف قصة الإمام على - كرَّم الله وجهه - وهو المشهور بالفُتْيا [٢] ، وكان الناس يستفتونه فيما يعجزون عن العثور على حل له ، واجتمع بعض من الناس وقالوا: نريد أن نجمع بعض الأشياء الصعبة ونسأله عنها لنختبره ، فلما اجتمعوا قالوا لعلىٍّ كرم الله وجهه: نريد أن نستعرض كون الله تعالى ، فقد جلسنا معاً لنعرف أقوى ما خلق الله ، واختلفنا فقال كل واحد اسم القوة على حَسْب ما يراها.

لم يتروَّ على بن أبى طالب ، ولم يَقُلْ كلاماً مَسْروداً [٣] بحيث إن وقف ، لا يطالبه أحد بزيادة ، بل حدَّد من الجملة الأولى عدد القوى حسب ترتيبها وقوتها ، حتى تطابق العدد على المعدود ، وهذا دليل على أنه مُسْتحضِرٌ للقضية استحضار الواثق. وفرد أصابع يديه وقال:

أشدُّ جنود الله عشرة: الجبال الرواسى ، والحديد يقطع الجبال ، والنار تذيب الحديد ، والماء يطفىء النار ، والسحاب المسخَّر بين السماء والأرض

(١) الكمون: الاختفاء والاستتار. ومنه: الكمين فى الحرب. وحزن مُكْتمِن فى القلب: مُخْتفٍ. [اللسان: مادة كمن].

(٢) الفتيا: تبيين المشكل من الأحكام ، أصله من الفتى ، وهو الشاب الحدث (الحديث السن) الذى شبَّ وقوى ، فكأنه يقوِّى ما أشكل ببيانه فيشب ويصير فَتِياً قوياً. وأفتى المفتى إذا أحدث حكماً. وأفتاه فى الأمر: أبانه له. وأفتى الرجل فى المسألة. واستفتيته فيها فأفتانى إفتاء. قال تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا ..(١١)﴾ [الصافات] وقال تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ ..(١٧٦)﴾ [النساء] أى: يسألونك. وقال تعالى: ﴿.. قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١)﴾ [يوسف] ، وقال تعالى عن بلقيس ملكة سبأ: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ..(٣٢)﴾ [النمل]. [لسان العرب: مادة (ف ت ى)] - بتصرف.

(٣) الكلام المسرود: الكلام المتتابع ، بعضه إثر بعض ، بحيث لا يدرك السامع أوله من آخره ، فلا يستطيع أن يستدرك شيئاً على المتكلم ، أو يحفظ منه شيئاً.

يحمل الماء ، والريح تقطع السحاب ، وابن آدم يغلب الريح ، يستتر بالثوب أو الشيء ويمضى لحاجته ، والسُّكْر يغلب ابن آدم ، والنوم يغلب السُّكْر ، والهمُّ يغلب النوم ، فأشد جنود الله - سبحانه - الهَمُّ.

هكذا قال سيدنا على بن أبى طالب ، فالهمُّ والغمُّ من أشد جنود الله تعالى ، وكان سيدنا يونس عليه السلام سبباً فى أن قدَّم الله سبحانه لكل مؤمن به إلى أن تقوم الساعة مَنْجًى من الهمِّ والغمِّ بالدعاء الذى ألهمه ليونس عليه السلام فى قوله تعالى:

﴿ ..لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾ [الأنبياء]

وهكذا تعدَّتْ «النجاة من الغم» من الخصوصية إلى العمومية ، وقد أخذها جعفر الصادق - رضى الله عنه - وجعل منها «تذكرة طبية» للمؤمن حتى يستقبل أحداث الحياة كلها ، فى كل جوانبها المفزعة ؛ لأن الإنسان يهدده الخوف مما يعلم .

أما الهم فلا يعرف الإنسان فيه سبب الخطر ، ولا يعلم الإنسان مكر الناس به ؛ لأن الإنسان لا يعلم ماذا بيَّتوا له .

وشغل الإنسان بأمر الدنيا وأن يكون منعَّماً ومرفَّهاً فى كل أمور الحياة ، يجعله عُرْضة للهموم .

وكان سيدنا جعفر الصادق [1] له بصر وبصيرة بآيات القرآن ومتعلقاتها ، فقال : «عجبت لمن خاف ولم يفزع إلى قول الحق سبحانه:

﴿ ..حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) ﴾ [آل عمران]

(١) هو : جعفر بن محمد بن على بن الحسين ، أبو عبد الله ، كان مشغولاً بالعبادة عن حب الرياسة ، روى عنه شعبة والثورى ومالك . توفى بالمدينة عام ١٤٨ هـ .

ولا يتُعجب لمن يخيفه شيء إلا إذا كان عند المتعجب شيء يزيل الخوف.

فمن عنده صداع يمكنه أن يعالجه بالأسبرين ، أما الخوف فقد وصف سيدنا جعفر دواءه ، بقول الله سبحانه:

﴿ ..حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) ﴾ [آل عمران]

فذلك هو الدرع من كل خوف.

ويقدم جعفر الصادق لنا السبب فيقول: لأن الله سبحانه قال عقبها:

﴿ فَانقَلَبُوا (١) بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ..(١٧٤) ﴾

[آل عمران]

أى: أن سيدنا جعفراً جاء بالحيثية من نفس القرآن ، وأضاف جعفر الصادق: «وعجبت لمن اغتم - وهو الموضوع الذى نبحثه الآن - ولم يفزع إلى قول الله سبحانه:

﴿ ..لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأنبياء]

فإنى سمعت الله تعالى بعقبها يقول:

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾ [الأنبياء]

وعجبت لمن مُكر به كيف لا يفزع إلى قول الله سبحانه:

﴿ .. وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) ﴾ [غافر]

لأنى سمعت الله تعالى بعقبها يقول:

---

(١) انقلبوا: رجعوا. أى: أنهم لما توكلوا على الله كفاهم ما أهمَّهم وردَّ عنهم بأس من أرادوا كيدهم، فرجعوا إلى بلدهم بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء مما أضمر لهم عدوهم. (ابن كثير ٢/ ٤٣١).

﴿فَوَقَاهُ (١) اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ (٢) بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾ [غافر]

وعجبت لمن طلب الدنيا وزينتها كيف لا يفزع إلى قول الله سبحانه:

﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ ..﴿٣٩﴾﴾ [الكهف]

لأنى سمعت الله تعالى بعقبها يقول:

﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾﴾ [الكهف]

وهكذا وجد جعفر الصادق رضى الله عنه فى كتاب الله أربع آيات لأربع حالات نفسية تصيب البشر ، وجاء مع كل حالة دليلها من القرآن الكريم.

وقول الحق سبحانه وتعالى فى آخر سورة يونس:

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ .. ﴿١٠٩﴾﴾ [يونس]

مناسب لقوله سبحانه فى الآية الأولى من السورة التى تليها:

﴿الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ [هود]

لأن الوحى كتاب أحكمت آياته حقاً وصدقاً.

---

(١) وقاه الله وَقْياً ووقاية وواقية: صانه. ووقيت الشيء إذا صنته وسترته عن الأذى. ووقاه ما يكره: حماه منه. وقال تعالى: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ ..﴿١١﴾﴾ [الإنسان] وقال تعالى: ﴿..وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ﴿٩﴾﴾ [غافر] [لسان العرب: مادة (و ق ى)].

(٢) حاق: أحاط. والحوق: الإحاطة بالشيء والإطار المحيط به المستدير حوله. قال الليث: الحيق ما حاق بالإنسان من مكر أو سوء عمل يعمله؛ فينزل ذلك به. وقيل: الحيق فى اللغة هو أن يشتمل على الإنسان عاقبةُ مكروه فَعَله. وقال الزجاج: حاق بهم العذاب أى: أحاط بهم جزاء ما كانوا يستهزئون، كما تقولُ: أحاط بفلان عمله وأهلكه كَسْبه، أى: أهلكه جزاء كسبه. قال تعالى: ﴿..فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [غافر]. وقال تعالى: ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ..﴿٤٣﴾﴾ [فاطر]. [لسان العرب: مادة (ح و ق، ح ى ق)].


سورة هود